

أول الطريق لصبيحة الشيخ داود¹

صدر كتاب "أول الطريق في النهضة النسوية في العراق" لصبيحة الشيخ داود في آذار عام 1958 في بغداد - مطابع الرابطة- وهو يعد أول كتاب نسوي في العراق. إن المؤلفة صبيحة الشيخ أحمد داود (1915-1975) رائدة النهضة العراقية وأول طالبة جامعية مسلمة في العراق كما أنها أول طالبة تدرس في كلية الحقوق بجامعة بغداد وكذلك أول محامية عراقية. في هذا الكتاب تحلل المؤلفة هذه النهضة منذ بداياتها أواخر القرن التاسع عشر وتطورها حتى سنة إصدار ذلك الكتاب عام 1958.

تتحدث صبيحة الشيخ أحمد داود من أصول عائلية مهمة ومؤثرة في تاريخ العراق : فوالدها الشيخ أحمد داود كان وزيراً للأوقاف عام 1928 وعضواً في البرلمان العراقي كما أنه لعب دوراً بارزاً في مناهضة الاستعمار البريطاني على العراق أثناء مشاركته في ثورة العشرين. انضم إلى صفوف شخصيات لامعة في الحركة الوطنية العراقية كالشيخ يوسف السويدي وجعفر أبو التمن والسيد محمد الصدر. أما والدتها نعيمة سلطان حميدة فهي شخصية بارزة وإحدى النساء اللواتي أسسن أول جمعية نسوية عراقية.

يبدأ الكتاب بمقدمة للأستاذ منير القاضي الذي كان وزيراً سابقاً للمعارف ورئيساً للمجمع العلمي العراقي كما أنه أستاذاً للمؤلفة في كلية الحقوق. استعرضت صبيحة عبر فصول الكتاب السبعة عشرة مشاركة المرأة في ثورة العشرين وتقدم النساء العراقيات في مجال التعليم والثقافة والعمل وما تلاها من تأسيس جمعيات نسائية تهتم بمكافحة الأمية ، ومن ثم مشاركة المنظمات والجمعيات السياسية النسوية بالمؤتمرات القومية العربية وما تمخض عنه ذلك من المطالبة بالحصول على كامل الحقوق السياسية للمرأة العربية.

اخرت فكرة تأليف "أول الطريق" عند صبيحة إثر إلقائها محاضرة يوم 19 آذار 1956 ، بدعوة من عميد دار المعلمين السابق خالد الهاشمي ، بعنوان "ملاحم من النهضة النسوية". أدركت من خلال اهتمام الجمهور بمحاضرتها ضرورة كتابة تاريخ للنهضة النسوية وتسجيل ملامحها على يد إحدى ممثلاتها والشاهدات عليها كي لا ينسى هذا التاريخ وحتى يستلهم منها الباحثون والمؤرخون والناشطون في المستقبل.

العراقية في ثورة العشرين

استهلّت المؤلفة كتابها بتناول دور المرأة العراقية في ثورة العشرين وأكدت أن النساء سواء كن من المدينيات أو من الريفيات قد تمتعن بوعي وفهم الأهداف الوطنية وضرورات الاستقلال بشكل لا يقل عما أبداه الرجال. فذكرت أن النساء شاركن في النضال ضد المستعمرين البريطانيين في كافة مراحلها: من مساعدة المقاتلين "تحمل أمتعتهم وتأتيهم بالزاد والمال ، وتستنفرهم إلى القتال وتثير النخوة في نفوسهم بالزغاريد وأهازيج الهوسات"² ، وحتى أنها شاركت في القتال. وأكدت صبيحة أن ارتداء العباءات لم تمنع العراقيات من المشاركة التامة ب"الجهاد" كما تشير أول مظاهرة سارت فيها المرأة العراقية للتعبير عن اتجاهاتها الوطنية إثر استشهاد عبد الكريم النجار، المعروف بالأخرس عام 1920. فشارك عدد كبير من النساء في التشجيع وهن مرتديات للعباءات السوداء وساترات وجوههن وراء الحجب الثقيلة ورافعات أصواتهن بالهتافات الوطنية المناهضة للإنجليز.

استشهدت المؤلفة بنموذج خاص من نساء الأرياف وهي امرأة من عشيرة بني عارض في الرميثة التي حارب زوجها وأولادها الثلاثة ثم قتل اثنان من أولادها وكذلك زوجها فوقفت في وسط المعركة نائرة شعرها وهي تصرخ مشجعة المحاربين على القتال. فلما قتل ولدها الأكبر جلست تلثم جروحه و تقول³:

عفية اولدي شيال راسي ردتك ترد ذوله الجواسي وبموتك كويت باسي

وكذلك ذكرت نجيدة من بني حجين التي أصرت على ولدها ، و هو في الثامنة عشرة المتزوج منذ سبعة أيام فقط ، أن يحتل مكان أبيه بين المقاتلين بعد استشهاده في معركة بين الثوار والإنجليز.

ثم تحدثت صبيحة عن مشاركة نساء المدينة في الثورة وعن والدتها خاصة التي قادت احتجاجات لسيدات عراقيات قدمن لمس بل مذكورة تدين الاعتقال والتهجير القسري إلى أمكنة مجهولة لعدد من السياسيين الوطنيين ومن ضمنهم الشيخ أحمد داود والد المؤلفة.

اشكر الأستاذة أمنة النسان لمساعدتها في كتابة هذا الملخص¹

ص. 28²

ص. 28³

التعليم النسوي

تناولت صبيحة تطور التعليم النسوي منذ بروزه حتى دخول المرأة مجال التعليم العالي و تزايد عدد الخريجات. فتحدثت عن إنشاء أول مدرسة ابتدائية ومتوسطة للبنات بقرار الوالي نامق باشا عام 1899 ودعاها "إناث رشدية مكتبي". في هذا السياق تحكي المؤلفة عن جميل صدقي الزهاوي "رواية طريفة": فالشاعر المشهور كان من ضمن مجلس المعارف في تلك الفترة وشارك في نقاش حول افتتاح هذه المدرسة في بغداد مع أعضاءه الذين كان غالبيتهم علماء ورجالا متدينين. فقد بدأوا يتناقشون حول البناء الصالح الذي يمكن أن يكون مقرا لمدرسة الإناث، "فطال جيلهم وتعددت شروطهم في تلك الدار، إذ كان رأيهم أن تتصف بما يلي: (1) أن لا تكون إحدى الدور المجاورة مشرفة عليها (2) أن لا تكون شبابيكها مطلة على الشارع (3) أن لا يكون في الدور المجاورة لها أشجار عالية".⁴ فصمت الزهاوي طوال الوقت وبعدما سكت الجميع قال بسخرية أن المكان الوحيد الذي يناسب مطالب أصحاب المجلس هو منارة سوق الغزل التي هي أعلى مكان في بغداد، "ثم أن الفتيات يصعدن سلالمه دون أن يراهن أحد، وليس له شبابيك. ثم إذا تكلمن فلا يسمع صوتهن أحد! فضحك الوالي وضحك الجميع". واتفقوا أخيرا على إحدى الدور الواقعة في محلة الميدان الجديدة وسجلت 90 تلميذة فيها.

ولقد تحدثت المؤلفة عن الصعوبات التي واجهها مسؤول المعارف حكمت سليمان عند تأسيس المدرسة الخاتونية للبنات في بغداد عام 1917. فقد تشجع على إنشاء هذه المدرسة إثر زيارته مدرسة الأليانس للبنات التي ضمت 1000 تلميذة من الفتيات اليهوديات. فتأثر باهتمام الأسر اليهودية بتعليم بناتهم وأصبح أكثر إصرارا على تأسيس مدرسة للبنات المسلمات. إن أول مدرسة للإناث تفتتح على يد امرأة وهي زهراء خضر - شقيقة الأستاذ عبد الرحمن خضر - عام 1918، ضمت 40 تلميذة توزع عن على ثلاثة صفوف درس فيها القرآن والرياضيات وبعض الفنون المنزلية. بدأ تقدم التعليم النسوي في بغداد مع افتتاح مدرسة المس كيلي للإناث في الجادة الكبرى في الميدان في كانون الثاني 1920 و بعد ذلك افتتحت أول مدرسة للإناث في النجف عام 1935. أما أول دار للمعلمات فقد افتتحت عام 1928 بقرار من ساطع الحصري وزير المعارف في تلك الفترة ومن أبرز مؤيدي التعليم النسوي. وفي إطار تقدم التعليم النسوي في الثلاثينيات لا بد من ذكر مساهمة الأستاذ جعفر حسين النجفي الذي دافع بشدة في كتاباته عن تعليم الإناث. وهكذا روجت فكرة ضرورة التعليم النسوي شجعت على صعيد العراق مما أدى إلى تزايد ملفت في عدد المدارس والتلميذات: فعدد التلميذات في المرحلة الابتدائية ارتفع من 462 تلميذة توزع عن على ثلاث مدارس للإناث في السنة الدراسية 1920-1921 إلى 17765 تلميذة توزع عن على 121 مدرسة في السنة الدراسية 1935-1936 ثم وصل العدد إلى 111208 تلميذة في 329 مدرسة للإناث عام 1956-1957. أما تلميذات المرحلة الإعدادية فبلغ عددهن إحدى عشرة تلميذة في المدرسة الوحيدة الأولى في السنة الدراسية 1929-1930 وأصبح عددهن 12885 توزع عن على أكثر من 50 مدرسة سنة 1956-1957. كما افتتحت دور المعلمات في كل محافظات العراق والتي كان عدد طالباتها يزداد مئة كل سنة.

أما بالنسبة للتعليم العالي فقد تحدثت المؤلفة عن تجربتها كأول طالبة جامعية مسلمة في العراق دخلت كلية القانون في جامعة بغداد عام 1936 وكانت المرأة الوحيدة بين 180 طالب. قبل ذلك كانت على البنات في العراق اللواتي ينوين الدراسة الجامعية أن يسافرن إلى خارج بلدهن. أصر والد المؤلفة الشيخ أحمد داود على دخول ابنته الجامعة في العراق أي مع الطلاب الذكور حتى يتسنى لجميع الفتيات العراقيات دخول الجامعة وعدم الاضطرار للسفر للخارج فليس لدى جميعهن الإمكانية المادية لذلك. فحسب المؤلفة تحمس لدخولها الجامعة قائلا: "بالنسبة لي لا تهمني تكاليف التعليم في الخارج! فان الله قد وسع علينا في الرزق، ولكن ماذا تعمل الفتيات الفقيرات اللاتي لا تمكنهن أحوالهن المادية من تحصيل التعليم العالي في الخارج؟ هل يقضى عليهن بالحرمان من نعمة العلم! ثم هل من قانون يحظر على الفتيات الانتساب إلى الكليات المختلطة؟"⁵ فاخترقت صبيحة مباني الكلية وهي ترتدي العباءة وتضع البرقع الأسود على وجهها وكانت تنزع له لدى وصولها إلى باب الكلية. تحدثت طويلا في الفصل الخامس من الكتاب عن معاناتها مع الطلاب الذكور الذين كانوا يسخرون منها واستنكر بعض الأساتذة وجودها وقضت السنة الأولى كلها في "اللوج" المنفرد كالسجينة حسب قولها: "في سجن لا أتحدث مع احد، ولا يتحدث معي إلا قليل منهم، وكنت اجلس فوق مقعدي أربع ساعات كل يوم قابعة في عباةتي."⁶

في تلك الفترة كانت صبيحة وأسرتها واعيين تماما لأهمية وجودها في صفوف الكلية فقد فتحت طريق التعليم العالي للفتيات العراقيات كونها بنت عالم ديني معروف صاحب وهو ذو أثر عميق على ضمير وأفكار المسلمين في العراق. وبالفعل تقول صبيحة أن ما بين دخولها إلى الجامعة عام 1936 وتخرجها منها تحولت مواقف كثير من العراقيين وافتتحت أبواب الكليات للفتيات العراقيات. فازداد عدد خريجات التعليم العالي من خريجة واحدة في السنة 1940 إلى 250 خريجة سنة 1956.

ص. 46⁴

ص. 66⁵

ص. 69⁶

نادي النهضة النسائية

تأسس نادي النهضة النسائية عام 1923⁷ وهو أول ناد للمرأة العراقية وكانت أسماء الزهاوي -شقيقة الشاعر المشهور جميل صدقي الزهاوي- أول رئيسة له. أشارت المؤلفة إلى أن تأسيس النادي كباقي الأنشطة النسائية العراقية كان متأثراً - خاصة في بداية العشرينيات- بالحركات النسائية التركية والسورية والمصرية. استند إنشاء هذا النادي في 24 تشرين الثاني 1923 إلى أهداف خيرية و مجتمعية و هي:

- افتتاح دورة لتعليم الأميات
 - خياطة الملابس للفقيرات
 - تربية وتعليم عدد من اليتيمات
- انتمت شخصيات عراقيات بارزات إلى النادي منذ تأسيسه فمنهن : شقيقات لسباسبين و مسؤولين مهمين على صعيد العراق في تلك الفترة كنعيمة نوري السعيد ، وعقيلة السيد جعفر العسكري الذي كان رئيساً للوزراء يومذاك وأيضا نعيمة سلطان حميدة -والدة المؤلفة- ، والأنسة حسبية جعفر بك والأنسة بولينا حسون -صاحبة مجلة ليلي-.
- أما نادي النهضة العراقية فكان من أوائل الجمعيات النسائية في العراق وكما يظهر في أهدافه التأسيسية كان جمعية مجتمعية تسعى إلى مساعدة الفقراء ومحو الأمية وتربية وتعليم الفتيات اليتيمات. من الواضح أن النادي منذ تأسيسه وجه نشاطاته إلى أعمال إصلاحية وحضرية تعمل على تحديث المجتمع العراقي من منطلق وطني. فقد روج مضمون التعليم في النادي من خلال الدورات التربوية والتعليمية لأفكار ومبادئ النهضة الوطنية العربية كما هو الحال بالنسبة للنهضة الشامية والمصرية. فمكافحة الجهل والأمية كانت جزءا كبيرا من المشروع الإصلاحى النهضوي العربي وكذلك التعليم النسوي ومحو الأمية النسائية. إضافة إلى ذلك نظم نادي النهضة النسائية ناديا أدبيا وفكريا يستقبل ابرز المفكرين المعاصرين وتناقش فيه أهم إشكاليات وقضايا العصر.

أهم أنصار النهضة النسوية في العراق

كرست المؤلفة فصلا كاملا من الكتاب للحديث عن مساهمة الملك فيصل في النهضة النسوية العراقية وعبرت بطريقة مباشرة وصريحة عن إعجابها بأول ملك للعراق والذي تطلق عليه لقب "فيصل نصير المرأة". فذكرت صريحة أن الملك استقبل في قصره وفدا من عضوات نادي النهضة النسائية وقد أهدى النادي بيتا عام 1924 ليكون مقرا له. وأكدت على أن الملك كان حريصا جدا على تطور التعليم النسوي وقضايا المرأة العراقية فقد افتتح ، إضافة إلى مدرسة لتعليم فتيات الأسرة المالكة ، مدرسة للتدريب للإناث وكذلك فرقة رياضية نسائية في قصره.

خصصت صبيحة الشيخ داود أيضا فصلا كاملا بعنوان "مفكرون أنتصروا للمرأة" تذكر فيه "المجتهد النجفي الذي دعا إلى تعليم المرأة" وهو العلامة الشيخ محمد حسين النائيني. وذكرت أيضا مساهمة الشخصيات النهضوية المشهورة كمعروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي وساطع الحصري ورفائيل بطي.

لقد مدحت طويلا صبيحة العلامة محمد حسين النائيني (1860-1936) لانفتاحه وحدائه فكره ولاسيما مواقفه إزاء "قضية المرأة". فذكرت أن العلامة النائيني استشهد مرارا بالحديث : "العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" كي يدافع عن التعليم النسوي. وقد ترك الأثر الكبير عند علماء النجف في مواقفه التقدمية بالرغم من الانتقادات الشديدة التي وجهها كثير من علماء الشيعة التقليديين. تضمنت جريدة *الفجر الصادق* ، التي كان يديرها الأستاذ جعفر الخليلي والتي كانت تصدر في النجف في الثلاثينيات ، رسالات النائيني وانتشرت من خلالها الدعوة للنهضة النسوية.

ثم ذكرت الشاعر الكبير المشهور معروف الرصافي (1875-1945) ومواقفه القوية والصريحة الداعمة لحرية المرأة والمساواة بين الجنسين. فاستشهدت ببعض قصائده التي تدافع عن حقوق المرأة وتدين الظلم الذي تعيشه المرأة العربية والمسلمة عموما باسم الدين والتقاليد العرفية. فعلى سبيل المثال أبيات القصيدة "التربية والأمهات":

في السنة نفسها التي أسست فيها هدى شعراوي الاتحاد النسائي المصري⁷

أم المؤمنين إليك نشكو
وقالوا : شرعة الإسلام تقضي
وقالوا : إن معنى العلم شيء
وقالوا : الجاهلات أصف نفسا
لقد كذبوا على الإسلام كذبا
وفي قصيدة أخرى من مجموعة "النسائيات" في ديوان الرصافي يرد على واصفي النساء بالناقصات ويدين أساس هذا الموقف⁸ :

يقولون لي : إن النساء نواقص
فأنكرت ما قالوه والعقل شاهدي
إذا النخلة العبيطاء أصبح طلعا
ولكن على الجذع الذي هو نابت
ويدلون فيما هم يقولون بسمع
وما أنا في إنكار ذلك باليدع
صعيفا فليس اللوم عندي على الطلع
بمنبت سوء فالنقيصة في الجذع

وبعد ذلك ذكرت الشخصية المعروفة جميل صدقي الزهاوي (1863-1936) وهو حسب قولها "شاعر الفكر والحرية" ومن أهم منتقدي تشدد مواقف السلطة الدينية إزاء المرأة. ومثل الرصافي كان يدافع عن حرية المرأة ويلح على ضرورة تخلصها من عبء التقاليد والقراءات الدينية المتطرفة التي تظلمها. وكان يدافع عن المساواة ولا يرى فرقا في المؤهلات والكفاءات العقلية بين الجنسين و يعد المرأة رمز التقدم وال عمران كما تشير أبياته الآتية المشهورة :

إنما المرأة والمرء
علموا المرأة فالمرء
سواء في الجداره
أه عنوان الحضارة
وفي الأبيات التالية يتناول مشكلة الزواج وظلم المرأة بسبب تكبر الزوج عليها⁹ :
مهما به احتفلت بعد الزواج
تلقى سوى ذي غرور غير محتفل
تراه زوجا على إرغامه بطلا
وفي سوى ذلك ليس الزوج بالبطل
قامت بخدمته جهد استطاعتها
تريد منه لها ميلا فلم يمل

ثم تحدثت صبيحة عن تعدد من رواد النهضة العربية وهو ساطع الحصري (1880-1968) وتقران دوره في العالم العربي بالذي لعبه جمال الدين الأفغاني "قائد الحركة الفكرية في الشرق الحديث" حسب قولها. فتشير إلى أن الحصري لعب دورا مهما في تعليم المرأة في العراق كما أوردنا ولاسيما عندما قرر افتتاح دار المعلمات وتؤكد أنه كان من أبرز مشجعي التعليم النسوي.

وأخيرا فيالنسبة للميدان الصحفي والأدبي فقد تحدثت المؤلفة عن مساهمة رفائيل بطي (1898-1956) في توثيق كفاح المرأة العراقية منذ ثورة العشرين. فمؤسس صحيفة البلاد كان صاحب المؤلفات الملفتة والقيمة التي عرفت قضية المرأة العراقية وأصرت على الدفاع عنها ، وهو أول صحفي كرس صفحة كاملة للمرأة في جريدته لمتابعة تطور النهضة النسوية العراقية ولمعالجة أهم مواضيعها وقضاياها.

ظهور ومظهر المرأة العراقية : " قضية سوق عكاظ " و " معركة العراقية مع الحجاب "

تحدثت صبيحة في فصل بعنوان "قضية سوق عكاظ" عما سماه البعض في ذلك الوقت "الفضيحة". وهي مشاركة المؤلفة عندما كانت في الثامنة من عمرها في أول مهرجان أدبي في بغداد¹⁰ المسمى ب"سوق عكاظ" في 24 فبراير 1924 والذي شارك فيه أبرز الشعراء والأدباء ورجال الفكر والثقافة في العراق. وقع الاختيار على صبيحة لتفوقها في المدرسة¹¹ لتلعب دور الخنساء ولتتلو إحدى قصائدها أمام الحشود. انتشر الخبر سريعا وأعلن أن "امرأة سافرة سوف تشارك بالمهرجان". فبدأ الجدل حول "الفضيحة" التي ستحدث في المهرجان وهددت الحكومة من قبل بعض الشخصيات لمنع مشاركة هذه "الأمراة". ولكن أسرة الشيخ داود أصرت على مشاركة أبنيتها الصغيرة في المهرجان ورفض الشيخ داود تنازل ابنته عن دورها على الرغم من تهديدات الحكومة العراقية باستخدام "القوة و الضغط"¹². وفي النهاية شاركت ابنة الشيخ داود وبموافقة الملك فيصل ولعبت دور الخنساء أمام ألوف من سكان بغداد والأقاليم وألقت قصائدها وهي تعتلي ناقة وهي ترتدي الملابس العربية الطويلة.

تناولت صبيحة من خلال تجربتها هذه صعوبة تقبل مجتمع العراق في العشرينيات ظهور المرأة -حتى لو كانت فتاة صغيرة- في الحياة العامة رغم ارتدائها اللباس التقليدي الطويل والعريض الذي يحجب كل علامات أنوثتها. ثم أفردت فصلا من الكتاب سمته "معركة العراقية مع الحجاب" تتناول فيه الجدل حول لباس المرأة الذي دار في العراق في العشرينيات

ص. 132-133⁸

ص. 136⁹

في الكرخ على الساحة التي يقع فيها اليوم المتحف العراقي الجديد¹⁰

حسب قولها ص. 95¹¹

ص. 113¹²

والثلاثينيات. فالمسألة لاقت صدى عند جميع أفراد الطبقة المثقفة والسياسية ولم يكن هناك مثقف أو مفكر أو مسؤول سياسي لم يتخذ موقفا حول "الحجاب". والمواقف كانت متعددة وأختلف فيها حول مفهوم "الحجاب" الذي عني للبعض "البرقع" أي الحجاب الأسود الذي يغطي الوجه أو العباءة التي تلبس فوق الملابس أو الحجاب الذي يوضع فوق الرأس. وفي استشهادات المؤلفة بأنصار ومعارض الحجاب في كامل الكتاب فليس هناك تعريف واضح ومحدد للسفور والحجاب. فورد في *الصحيفة* لحسين الرجال مقالات كثيرة حول الموضوع ، فمن مناصري الحجاب كان هناك من الشخصيات العراقية المعروفة المطرب محمد القبانجي الذي أصدر أغنية تنتقد "مودة كص الشعر" إذ يعدها "عادة غريبة"¹³:

إبنيه بنت البيت كصت شعرها عالمودة تمشي دلوع باربي سترك
عالمودة تمشي دلوع عافت سترها تحفظ جميع الناس منها و مكرها
وأیضا:

كص الشعر كل يوم عند المزين والركبة ركبة شاب من ورة تبين
لو للعلم تسعين يا بنتي أحسن خلي الخلاعة تروح للغرب أهلها
ومن أشد أنصار الحجاب استشهدت المؤلفة بالشاعر إبراهيم أدهم الزهاوي¹⁴:
رأيت في النوم إبليسا فقلت له جد الشياطين لا تبخل بتبنيان
اعط الجواب لصب لا قرار له كيف الوصول.....
فقال مرتجلا بيتا أجاد به وكان مختفيا هن كل إنسان:
سل السفوري عما تستشير به إن السفوري من جندي وأعواني

وأیضا من منتقدي السفور استشهدت صبيحة بقصيدة حسين الظريفي بعنوان "خلوا احتجاب الغانيات و شأنه"¹⁵، وكذلك بالشخصيات المهمة في الحياة السياسية العراقية كوزراء المالية السابقين الأساتذة توفيق الفكيكي و خليل أسماعيل وكذلك بمحمد بهجة الأثري.

وعلى الجانب الآخر كان من أبرز منتقدي الحجاب الأستاذ مصطفى علي الذي استند إلى كتابات قاسم أمين في دفاعه عن السفور أي سفور الوجه كما عناه قاسم أمين. ونشرت *الصحيفة* سنة 1926 القصيدة المشهورة "ارفعيه" لبسيم ذويب¹⁶ الذي ينتقد فيها البرقع أي غطاء الوجه¹⁷. وقد أثارت هذه القصيدة ضجة كبيرة وأثرت كثيرا على حياة هذا الشاعر الشاب:

ارفعيه

مزقيه

واطرحيه

بين أحجار القبور

وانهضي سافرة الوجه وغني

هكذا كان السفور.

ليس عارا

أو شنارا

أن يجارى

سير تيار الدهور

فارفعي البرقع عنك و اطرحيه

تحت نيران القدور.

بل دعيه

غسله

وادفنيه

بين طيات التراب

ثم لا تبكي و قولي بارتياح:

هكذا مات الحجاب.

إن سألت:

من دفنت؟

ص. 97¹³

ص. 98¹⁴

ص. 98¹⁵

كان أنذاك في السنة الثانية في كلية العسكرية الملكية¹⁶

ص. 103¹⁷

فأجبت:
إنه نعش النقاب
سيقولون: عليه رحمة الله فصلي
واقربي أم الكتاب

ظلموك
سجنوك
زوجوك
شر زوج في الوجود
قائلا زوجي: لا تخرج إلا
يوم تدعوها للحدود

قد كفانا
يا نسانا
ما لقينا
من خمول و جمود
فلندع كل قديم، لا نقلد
اننا لسنا (قروء).

ومن أبرز وأهم منتقدي الحجاب الشاعرين المعروفين الذين أثرا كثيرا بالنهضة النسوية العراقية كما أوردنا معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي. فالأول ألف الأبيات التالية إلى صاحبة مجلة *الخنزير*:
وأكبر ما أشكو من القوم أنهم يعدون تشديد الحجاب من الشرع
أفي الشرع إعدام الحمامة ريشها وإسكاتها فوق الغصون عن السجع
وهنا يدين الرصافي عقلية الشرقيين إزاء المرأة:
ولقومنا في الشرق حال كلما زدت افتكارا فيه زدت تعجبا
تركوا النساء بحالة يرثى لها وقضوا عليها بالحجاب تعصبا
قل للآلى ضربوا الحجاب على النساء أفتعلمون بما جرى تحت العبا
ومن أبيات الزهاوي المشهورة عن الحجاب الذي يعتبره من العادات وليس من الدين :
منعهن أن يرين ضياء فتعودن عيشة الظلمات
دفنوهن قبل موت صريح في قبور سود من الحجرات
إن هذا الحجاب في كل أرض ضرر للفتيان و للفتيات
لم يكن وضعه من الدين شيئا إنما قد أتى من العادات
وفتاة كزهرة الروض حسنا زهرت و هي في ربيع الحياة

وأشارت المؤلفة إلى ماجدة الحيدري -عقيلة رؤوف الجادرجي- أول امرأة مسلمة "من كريمات الأسر في المدن" 18 التي دافعت عن السفور علنا وخرجت سافرة لأول مرة عام 1933.

الجمعيات النسوية الاجتماعية والسياسية

حسب المؤلفة فإن أول صيحة للمطالبة بحقوق المرأة السياسية أطلقتها بولينا حسون عبر المجلة التي أسستها "إيلي" وهي أول مجلة نسائية عراقية. فطالبت في مقالة نشرت في المجلة في العدد الصادر في 15 آذار 1924 بحصول المرأة على كامل حقوقها السياسية بالمساواة مع الرجل. كررت مطالباتها تلك خلال مؤتمر طهران النسوي الذي عقد أواخر عام 1932 والذي ضم مندوبات نساء الدول الشرقية.

تأسس في الثلاثينيات عدد ملفت للنظر من الجمعيات السياسية والمنظمات النسوية الخيرية المجتمعية وأيضا السياسية والدينية. ومن أبرز وأشهر الجمعيات التي تحدثت عنها المؤلفة هناك الفرع النسوي *للهمال الاحمر* الذي تأسس عام 1933 جمعية *مكافحة العلل الاجتماعية* التي كانت تسمى سابقا *جمعية مكافحة المسكرات* التي أسستها سارة الجمالي عام 1937. من خلال هذه الجمعيات شاركت النساء العراقيات في الرعاية الاجتماعية ومساعدة الفقراء والمحتاجين وتنقيف المجتمع. بعد ذلك في الاربعينيات ساهم النشاط النسوي في مساعدة اللاجئين الفلسطينيين من خلال *البيت العربي* الذي افتتح عام 1948 وكذلك *جمعية بيوت الأمة* التي تأسست عام 1935 إضافة إلى أعمالها في مجال محو الأمية (من الرجال و النساء) ومساندة الفقراء.

من الجمعيات ذات الميول الدينية على سبيل المثال الجمعيات النسوية المسيحية كجمعيات الراهبات وجمعية الرفق بالفقير وجمعية الأمهات التابعة للكنيسة الأثورية الانجيلية. وكان هناك الفرع النسائي لجماعة الإخوان المسلمين في العراق الأخت المسلمة التي تأسست عام 1951 وكانت تعمل في مجال التربية الإسلامية و"مكافحة روح التفرنج والتحلل الأخلاقي"¹⁹. ومن الجمعيات ذات الميول السياسية ذكرت صبيحة ثلاث جمعيات وهي جمعية مكافحة النازية والفاشية التي تأسست عام 1942 وأصبحت جمعية الرابطة النسوية، و نادي أخوات الحرية الذي تأسس بجهد مرغريت دراور عام 1944. لهاتين الجمعيتين أهداف خيرية اجتماعية وسياسية فقد دافعت عن حرية وحقوق المرأة وقدمت مساعدات ورعاية خيرية وثقافية مثل محو الأمية ومساعدة الأولاد المرضى وقدمت ندوات ثقافية وعلمية أيضا. لكن المؤلفة توقفت طويلا عند أبرز جمعية سياسية مجتمعية وهي الإتحاد النسائي العراقي الذي تأسس إثر مؤتمر الإتحاد النسائي العربي الذي عقد بدعوة من هدى شعراوي في القاهرة سنة 1945. دعى الإتحاد إلى تضامن النساء العراقيات والعربيات للدفاع عن حقوق المرأة الأسرية والاجتماعية والسياسية وأستهدف مساندة المجتمع العراقي وثقافته وتحضره. مثل الإتحاد النسائي العراقي النساء العراقيات في المؤتمرات النسوية العربية والشرقية حيث حمل إليها المطالبات النسوية العراقية. ومن أهم المؤتمرات النسوية على الصعيد العربي المؤتمر النسائي العربي الذي عقد في بغداد في أيار 1952 ومثلت فيه المؤلفة العراق. فمن خلال هذا النشاط شاركت النساء العراقيات في مشروع الوطنية العربية المتضمن الدعوة إلى الوحدة العربية في إطار مجتمعات حديثة ومتقدمة تحقق أهدافا سياسية قومية كالتضامن من أجل القضية الفلسطينية، وكذلك أهداف تتعلق بالحرية العامة والدعوة إلى إصلاحات اجتماعية اقتصادية كالمطالبة بالعدالة الاجتماعية والمساواة بين الرجل والمرأة. فقد كانت المطالبات بحرية المرأة جزءا من مطالبات التيار الإصلاحي في العراق كما هو الحال في الدول العربية عموما. فجمعية الإصلاح الشعبي على سبيل المثال التي تأسست عام 1936 وتمثل حسب المؤلفة أول منظمة سياسية أدرجت ضمن أهدافها حرية وحقوق المرأة فكان من مطالبها: "وضع قوانين توافق المدنية الحديثة لتنظيم الأحوال الشخصية. ب) السعي لتحرير المرأة مع الاحتفاظ بالنظام العائلي."²⁰

رفع الإتحاد النسائي مذكرة إلى رئيس الوزراء ورئيس مجلس الأعيان العراقي يوم 18 حزيران 1952 تطالب بالمساواة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين المرأة والرجل. وكرر الإتحاد مطالبته بالمساواة في 6 تشرين الثاني حين قدم مذكرة لرئاسة الوزراء وقيادي الأحزاب السياسية تنشد تحقيق هذا الهدف من خلال تعديل قانون الانتخابات. ونظم الإتحاد النسائي العراقي "أسبوع المرأة" عام 1954 للضغط على السياسيين والمسؤولين الحكوميين لتعديل قانون الانتخابات لصالح المرأة.

وقد تحققت الإصلاحات المطالب بها من قبل أنصار حرية وحقوق المرأة حين عرضت الحكومة العراقية تعديل الدستور العراقي يوم 25 كانون الثاني 1957 من خلال إضافة "التعريف بالحقوق السياسية للمرأة". وكانت آخر تلك الخطوات لتحقيق المساواة السياسية إعلان رئيس الوزراء نوري السعيد يوم 6 أيار 1958 منح المرأة العراقية كامل حقوقها السياسية.

العراقية في الأدب والفكر

استعرضت صبيحة الشيخ داود عراقيات بارزات في مجال الأدب والفكر واستشهدت بأسماء عديدة لأدبيات ومفكرات عراقيات ومن ضمنهن كثيرات شاركن في النشاط النسوي السياسي العراقي إلى جانب إصدارهن أعمالا شعرية وأدبية وفكرية. ففي مجال الأدب والفكر استشهدت بماهرة النقشبندية وسافرة جميل وآمال الأوقاتى ونعيمة نديم وأمينة الرحال وافتخار الوسواسي وأدبية إبراهيم رفعة وعزة الاسترأبادي وعفيفة رؤوف والدكتورة نزيهة الدليمي²¹ والدكتورة لمعان أمين ذكي ووديعه جعفر الشبيبي ونجبة حمدي ولميعة الأورفيلي ووجيهة رضا الشبيبي وصبيحة ومديحة الهاشمي وفائقة النقيب وفضمة الزبيق وسعاد الهاشمي ورزينة الزهاوي وحياء الزبيدي وباكيزة أمين خاكي ووديعه طه النجم ورفيعة الخطيب وابتهاج عطا أمين من العراقيات البارزات وغيرهن كثيرات.

وركزت على أن الأدبية والشاعرة العراقية تنقصها التعبير عن المشاعر ولاسيما في مواضيع الحب والغزل وهما مجالان واسعان عند الرجل ونقص التعبير عنهما عند المرأة العراقية يدل على أن المجتمع العراقي منغلق إلى حد ما. فنادرا ما نجد قصائدا أو قصصا لنساء عراقيات تتحدث مباشرة عن عواطف ومشاعر الحب والغزل وتتأسف المؤلفة لهذا لأنها تعده تعبيرا إنسانيا طبيعيا على المرأة أن تخرج من الحشمة وتتحدث عنه.

وكرست المؤلفة عدة فقرات لبعض الأدبيات العراقيات المهمات مثل رباب كاظمي التي ولدت عام 1928 وهي ابنة الشاعر الكبير الإصلاحي والمعارض للاستعمار الانكليزي عبد المحسن الكاظمي. وأيضا للسيدة سلمى عبد الرزاق التي ولدت عام 1908 وأنجبت أشهر الشاعرات العراقيات نازك الملائكة وهي في الخامسة عشرة من عمرها نتيجة زواجها المبكر. ألفت قصائد تعبر عن رأيها بالوضع السياسي في العالم العربي كما في قصائدها عن القضية الفلسطينية. أما نازك الملائكة التي ولدت عام 1923 وتخرجت من دار المعلمين العالية وتلقت دراستها العليا في أمريكا فهي الشاعرة الكبيرة وأيضا الباحثة والمحاضرة التي شاركت في العديد من المؤتمرات الأدبية على صعيد العالم العربي. ولنازك دواوين

ص. 183¹⁹

ص. 148²⁰

أول وزيرة عربية في عام 1959²¹

مطبوعة ومنتشرة في جميع أنحاء العالم العربي الذي تأثر بقصائدها الوجودية المتميزة بالتشاؤم والتساؤلات حول شعورها بالغرابة كما تشير الأبيات التالية :

ماذا وراء الحياة ماذا
أي غموض و أي سر ؟
و فيم جننا ؟ و كيف نمضي ؟
يا زورقي أم لأي بحر ؟
يدفعك الموج كل يوم
أين ترى غاية المقر ؟
أجري كما ترسم المقادير لي إلى حيث لست أدري

وصدوف العبيدية واسمها الحقيقي فطينة حسين النائب ولدت عام 1917 وهي حفيدة العلامة عبد الوهاب النائب ، درست في المدرسة المركزية وتخرجت من دار المعلمات الابتدائية سنة 1936 وكانت عقيلة ابن عمها الشيخ بهاء الدين سعيد. عادت للدراسة في كلية الملكة عالية بعد وفاة زوجها و أصدرت أول ديوان لها عام 1955 بعنوان "لهيب الروح" وتميز شعرها بقوة التعبير عن خلجات النفس والعواطف والمشاعر ولها :
إنني متفائلة حتى باليأس ، واثقة بالله و عنايته ، حتى عندما أرى الدنيا ظلاما ، و الآمال حطاما.
أحب الحياة ككتاب لذيق ، جدير بالقراءة ، كما أحب الموت ككتاب لم أقرأه بعد ، وإن أحسست أحيانا أنه بيدي :
واني على وشك قراءته.

أما عاتكة وهي الخزرجي التي ولدت عام 1924 وحصلت على دكتوراه الدولة من كلية الآداب في الصور بون ونشرت شعرها في سن مبكرة في الصحف العربية منذ 1939. وقدمت بحثا تشرح فيه ديوان العباس بن الألفث وألفت مسرحية بعنوان "مجنون ليلى" نهجت فيها نهج أحمد شوقي. ومن الشاعرات الأخريات لميعة عباس عمارة التي تخرجت من دار المعلمين العالية عام 1950 ونظمت أول قصائدها وهي في الخامسة عشرة من عمرها. ومقبولة الحلبي التي تخرجت من كلية الملكة عالية سنة 1955 ونشرت شعرها في جميع الصحف والمجلات ولاسيما *العرفان* وتميزت فيه بالنوع العاطفي النادر في تلك الفترة كما أوردنا. نقتطف أبيات قصيدة "النداء" التالية:

إن حبي ليس كالحب : سفاها و ادعاء
و منى مظلمة اللجة ... تهتز اشتها
إن حبي ، كرفيف الزهر ، طهرا و ازدهاء
كابتناسم الأرض بالعشب إذا تشرب ماء
كصلاة الأمن الداعي ابتهاالا ودعاء

أما أميرة نور الدين الداوود التي ولدت في بغداد عام 1925 حيث درست فيها الثانوية وانتقلت عام 1943 إلى كلية الآداب في جامعة القاهرة وتخرجت منها وقدمت رسالة ماجستير تناولت "الشعر الشعبي في منطقة الفرات الاوسط" سنة 1957. ومن أهم أبحاثها الشعرية دراستها عن شعر محمد إقبال التي طبعتها السفارة الباكستانية عام 1950.

ثم انتقلت المؤلفة إلى موضوع الصحافة النسائية و ذكرت بعض الأسماء لصحفيات عراقيات بارزات كسلوى زكو وجميلة يوسف و شرقية الراوي. و توقفت عند بولينا حسون ومجلتها *ليلى* أول مجلة نسائية والتي حمل عددها الأول الصادر يوم 15 تشرين الأول 1923 العنوان "في سبيل نهضة المرأة العراقية". نشر في صفحاتها شخصيات نهضوية كالرصاصي والزهاوي عبروا فيها عن أفكارهم المناصرة لتحرير المرأة العراقية. ومن الصحف النسائية الأخرى هناك *المرأة الحديثة* التي ساهمت فيها حميدة الأعرجي والتي غيرت اسمها إلى *فتاة العراق* سنة 1936 والتي تميزت بقلم حسبية قاسم راجي. و هناك أيضا *فتاة العرب* لمريم نرمة التي صدر عددها الأول عام 1937 بالتعريف التالي "جريدة أدبية نسائية اجتماعية غايتها خدمة الفتاة العراقية" ولكن لم يستمر صدورها أكثر من 6 أشهر بسبب نقص الإمكانيات المادية. كذلك من الصحافة المناصرة للمرأة أصدرت جمعية تحرير المرأة عام 1943 جريدة *صوت المرأة* للدفاع عن حقوق النساء ولكنها توقفت عن الصدور بعد عددين فقط. وذكرت صبيحة مجلات أخرى كفتاة الرافدين الصادرة من قبل دائرة العلاقات العامة في القنصلية البريطانية في البصرة عام 1943 وتوقفت بعد 3 سنوات فقط. وهناك أيضا *الرحاب* للسيدة أقدس عبد الحميد وهي مجلة أدبية اجتماعية صدرت لعامين منذ 1946 وفي السنة نفسها صدرت مجلة الأم والطفل من قبل جمعية حماية الأطفال العراقية. أما جمعية الاتحاد النسائي فأصدرت مجلتها بجهود آسيا توفيق وهي رئيسة الجمعية في عام 1949 وحتى 1953.

المرأة في ميدان العمل

تركز صبيحة على أن دخول المرأة العراقية إلى ميدان العمل لم يقتصر على رغبتها أن تصبح امرأة عاملة بل كي تغير نظرة المجتمع إليها وتصورات الرجل عنها وعلاقتها معه. وأشارت إلى أن أول وظيفة شغلتها هي مهنة المعلمة التي مازلت أكثر المهن للنساء شيوعا في العراق ، إضافة إلى مجالات العمل الأخرى من التمريض والطب والحمامة

والحسابات والصحافة والتمثيل. و أصبحت النساء طبيبات في العراق عام 1938 لأول مرة وكذلك محاميات في سنة 1941. أما أول مذيعة عراقية دخلت الإذاعة فكانت فكتوريا نعمان عام 1943 وتبعته صبيحة منير المدرس. وفي عام 1958 تجاوز عدد الباحثات الاجتماعيات الثلاثين باحثة. وتواجدت النساء العاملات في الخمسينيات في مجال الإدارات المحلية والمؤسسات الصناعية والحسابات بشكل كبير وملفت للنظر.

أما بالنسبة للتشريع العمالي العراقي والضمان الاجتماعي في العراق ذكرت المحامية أن قانون العمال رقم 36 لسنة 1942 نص على مساواة المرأة بالرجل من حيث الحقوق العامة وسأوا مشروع الضمان الاجتماعي بين الذكور والإناث الذي تأسس بموجب القانون رقم 27 لعام 1956. وحصلت المرأة العراقية على مكاسب من أهمها: المساواة في الأجور وحصولها على كامل حقوقها العمالية إلى جانب تسهيلات في أوقات العمل والإجازات في حالة الحمل والولادة والحضانة. فتصف صبيحة حقوق المرأة العاملة بالعبارة التالية "فتح فرص الاستخدام مع الالتفات و النظر إلى طبيعة الأثوة و مراعاتها"²².

العراقية في الريف

اختتمت صبيحة شيخ داود الكتاب باستعراض وضع المرأة في الريف وأسفت لمنزلتها المتدنية في كثير من الأحيان فتقول: "وما من شك في أن سيادة الرجل جعلتها بضاعة بمعنى الكلمة، و هبطت بها إلى مستوى غير لائق، فضلا عن أنه غير عادل... و حتى اليوم لا تملك لنفسها كلمة في تقرير مصيرها... و لا في أهم أمورها الدنيوية، كالزواج و هي توهب أو تكرم و تستبدل بها أخرى و تباع... و أنا أعني ذلك، لأن ولي أمرها يستأثر بمهرها كله، فتذهب إلى دار الزوجية خالية الوفاض، بينما يصرف وليها مهرها في الوجوه و الشؤون الخاصة به"²³. لكنها نسبت الوضع الكارثي للنساء الريفيات إلى الظروف الاقتصادية والاجتماعية في الريف إضافة إلى العقلية الذكورية المهيمنة على النساء. فانتشار ظاهرة تعدد الزوجات في الريف نسبتبه إلى اللفق الهائل وسيطرة العقلية المتخلفة بسبب غياب المدارس و غياب مشاريع محو الأمية. فاقترحت صبيحة على الدولة القيام بواجبها في المناطق الريفية والعمل على رفع المستوى المعيشي وتوزيع مساعدات مالية و عينية للفقراء ونشر مشاريع محو الأمية وإنشاء مدارس للبنات.

صبيحة الشيخ داود : شاهدة على عصرها

إن أول الطريق من الكتابات التي ألقت في إطار مشروع النسوية التي تركز على كتابة التاريخ من "منظور" نسائي أو نسوي وتطمح إلى إضافة التاريخ النسائي إلى التاريخ الرسمي أو بالأحرى الذكوري الذي تجاهل المرأة ووضعها على هامش التاريخ. فساهمت صبيحة الشيخ داود في تسجيل النهضة النسوية في العراق فكتابها لا يختصر بصفة السيرة الذاتية بل يشغل حيزا في تراث النسوية العربية في عصر النهضة.

أثناء قراءة أول الطريق علينا إدراك السياق التاريخي لظهور النهضة العراقية وخصوصا النهضة النسوية التي تصفها ابنة الشيخ داود. فأسرتها السنية كانت من أسر النخبة السنية القليلة التي عارضت بقوة الانتداب الانجليزي إلى جانب المعارضة الشيعية الثائرة في النجف وكربلاء والكاظمية وفي الجنوب العراقي والتي بلغت ذروتها عند ثورة العشرين. فالمؤلفة تنتمي إلى أسرة ذات ميول قومية عربية لم ترض عن الهيمنة البريطانية على الدولة العراقية الجديدة ودافعت عن المشروع النهضوي الذي عمل على تحديث وتحضر المجتمع وإصلاحه. فتأسست أول الجمعيات النسائية لدى وصول الملك فيصل إلى السلطة في إطار الانتداب الإنكليزي. فعاشت النخبة العراقية الحاكمة في تلك الفترة ازدواجية تدعم مشروع القومية العربية من ناحية وكذلك تعمل مع النظام الذي فرضته بريطانيا وسيطرت عليه كليا. لعل هذه الإشكالية هي في الحقيقة إشكالية تشكل البلدان العربية إثر تفكك الامبراطورية العثمانية ونشوء نخب متغربة ومالية للحكومات الغربية. وكررت صبيحة خلال الكتاب مديحها للملك فيصل وإعجابها ببعض الشخصيات العراقية الحكومية التي عدتها مناصرة للنهضة النسوية. وذكرت مشاركة جرتروود بل ممثلة بريطانية في نادي النهضة النسائية وحضورها الاجتماعات و"حفلات الشاي" كما تحدثت عن وجود شخصيات سياسية بريطانية في مناسبات نظمتها بعض الجمعيات النسائية.

صبيحة مثل معظم شخصيات النهضة تنتمي إلى الطبقة العليا والأسر المثقفة والقيادية في الدولة العراقية. فمن الطبيعي أن لا تتحدث عن نشاطات النساء الأخرى مثل الجمعيات اليسارية التي كانت سرية وتعتبر مخالفة للنظام بل أن تكتب مؤلفة "أول الطريق" من منظورها النخبوي القريب من قيادي الدولة العراقية الجديدة الحاكمة تحت الانتداب الانجليزي. ففي الثلاثينيات كان على الجمعيات أن تطلب موافقة السلطة عند إنشائها ولم تحصل كثير من المجموعات النسائية على الموافقة فاضطرت للعمل السري وهذا ما حصل مع الجمعيات اليسارية ولاسيما المرتبطة بالحزب الشيوعي العراقي. فأغلقت مجلة رابطة المرأة العراقية (المرتبطة بالحزب الشيوعي العراقي) على سبيل المثال كما أوقفت مجلات المجموعات الشيوعية في

ص. 218 22

ص. 224 23

الأربعينيات لأنها اعتبرت مخالفة للنظام. قد تجهل صبيحة النشاطات الأخرى أو تعتبرها هامشية وقليلة الأهمية مقارنة مع النشاط "الرسمي" المعروف لنادي النسوية العراقية الذي تحدثت عنه طويلا في كتابها ، وهذا أمر طبيعي جدا عند كتابة التاريخ : فالمتحدث يتكلم من مكانه ومنظوره الخاص ، فتتكلم صبيحة عما تعتبره هاما ومؤثرا بالنسبة إليها ، فالنشاط النسوي الذي تعتبره ملفتا للنظر وجديرا بالتناول هو النشاط الذي يتعلق بأسرتها ومجموعتها الاجتماعية التي كانت متعلقة بالنخبة الحاكمة آنذاك.